مدخل إلى الدراسة الدينية المقارنة

بقلم : الأستاذ / لخضر شايب

1-لمحة تاريخية:

لعرض ما نرى أنه أساس في أية دراسة مقارنة للأديان، والعناصر التي يجب أن تتبوأ الصدارة فيها بالنسبة للدارسين بصفة عامة ، و الدارس المسلم على وجه الخصوص نحتاج إلى البحث -ولو بإيجاز - في تاريخ هذا العلم .

ومن البديهي أن نحكم بأن [البحث] في عقائد ، وتشريعات الأمم المخالفة - مهما كان نوع هذا البحث - كان منعدما في الفكر الديني الإنساني القديم . ويعود ذلك إلى أن كل ديانة من الديانات القائمة آنذاك ، كانت تنظر إلى عقائد المخالفين لها باعتبارها : هرطقات، أوبدعا، أي أن البطلان يحيط بها من كل جانب ، ولذلك فقد كانت تمنع أتباعها من النظر في مبادئها من ناحية، وتسعى للقضاء عليها من ناحية ثانية .

وهذه حقيقة ثابتة، لا سبيل إلى إنكارها لوجود ما يدل عليها في التاريخ الإنساني، وما يثبتها في الكتب المقدسة لكل الديانات القديمة، وكمثال على ذلك فإن اليهود كانوا - ولا يزالون - ينظرون إلى المسيحيين - وكل المخالفين لليهود - باعتبارهم كفارا أو مبتدعين .(1) بينما سعت الديانة المسيحية، منذ اختفاء الجيال الأولى للمسيحيين إلى شق طريق مخالف لليهودية من الناحية العقيدية ، والتشريعية، وسعت إضافة إلى هذا للقضاء على اليهود بكل سبيل .(2)

وظل الأمر كذلك في العالم اليهودي والمسيحي إلى القرن الثالث عشر الميلادي، حيث ابتدأ اهتمام الكنيسة الكاثوليكية بالديانات [المنافسة]، ولأسباب قاهرة أهمها :عجزها عن الحشد العسكري لقدرات الممالك الأوروبية، بعد هزيمتها في

* أستاذ بالمعهد الوطني للعلوم الإسلامية بباتنة.

حروبها الطويلة ضد المسلمين إبان الحروب الصليبية، والتي نتج عنها اهتزاز السيطرة التي مارسها البابوات على الملوك والأمراء الأوروبيين منذ أواخر القرن العاشر الميلادي.مما دفع الكنيسة إلىتغيير استراتيجيتها للقضاء على الإسلام، فتحولت من اتخاذ المغالبة العسكرية وسيلة لذلك إلى تبني المغالبة الفكرية، فأنشأت بتوصيات من كبار المبشرين، وعلى رأسهم ريموند لول (3) كراسي لتدريس العربية وغيرها من لغات الشرق في أربع جامعات وهي:باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وصلمنكة، ثم في جامعة خامسة بالبلاط البابوي، بدافع تبشيري بحت (4).و هو تحول نرى أنه فرض على الكنيسة فرضا للأسباب التي ذكرنا أهمها قبل قليل .

أما بالنسبة لعلم مقارنة الأديان، باعتباره علما يتجاوز مجرد عرض عقائد المخالفين(5)، فقد ظهرت مقدماته مع بدء العصر اللاديني في أوروبا منذ القرن السابع عشر بظهور [الدين الطبيعي] (6) في انجلترا، والقارة الأوروبية بعدها، والذي شهد بدايات التأليف العلمي عن الإسلام بشكل خاص، وذلك لاستغلال مبادئه - خصوصا مبدأ التسامح مع الديانات المخالفة - لضرب النظام الكنسي.وللتأكد من ذلك يكفي الرجوع إلى جملة المؤلفات الدينية والفلسفية طيلة القرن السابع عشر، والثامن عشر، وإجمالا إلى كل ما ألف في أوروبا في اللاهوت قبل بداية موجة الاستعمار و ما نتج عنه من نظرة الى المسلمين فرضتها الوضعية الجديدة، حيث لم يخل مؤلف من المؤلفات من ذكر للمسلمين، ومآثرهم، إضافة إلى تذييل معظمها بكتب، ورسائل لعلماء مسلمين (7).

ورغم بداياته المبكرة ، لم تظهر في هذا العلم دراسات مقارنة بالمعنى الحقيقي للمصطلح من جهة، وذات قيمة علمية عالية من جهة ثانية إلا في القرن العشرين (8)، وذلك يعود بصفة خاصة إلى ما يلاحظ في مؤلفات القرون السابقة - وفي كثير من دراسات القرن العشرين أيضا - من جزئية، وقصور يعود معظمه إلى انصراف العلماء لعرض الإسلام - وغيره من الديانات - في أصوله ، وعقائده، وتشريعاته .أي أن تلك المؤلفات كانت أقرب

إلى أن تقع تحت اسم [تاريخ الأديان] منها إلى أن تكون [مقارنة للأديان] بكل ما تفترضه من تميز، وخصوصية.وتجد هذه الملاحظة تفسيرا لها عند البحث في أهداف هؤلاء الباحثين، والتي تتمثل في تركيز جهود معظم علماء اللاهوت، وتاريخ الأديان، والفلاسفة، وعلماء الإنسانيات طيلة القرن الثامن عشر، والتاسع عشر على محاولة هدم الصرح العقيدي المسيحي الكاثوليكي بوسائل متعددة منها: التعريف بالديانات المخالفة، ولذلك فقد كان هذا الجهد [غائيا] أي غير مقصود لذاته، وهو السبب الذي أوقف هؤلاء العلماء عند جهد العرض فقط دون تجاوز ذلك إلى المقارنة العلمية إلا في جزئيات يحقق بحثها تلك الغاية التي أراد هؤلاء العلماء الوصول إليها .

ولهذه الأسباب نستطيع اعتبار علم مقارنة الأديان في ثوبه الأوروبي علما حديثا، ومدنيا في الوقت نفسه.وحداثته تعود إلى أن ظهوره باعتباره تخصصا علميا لم تتحقق كلية إلا في القرن العشرين.أما مدنيته فلأنه لم ينشأ إلا بعد القضاء على سيطرة العقائد المسيحية على النفوس، والعقول، في شكلها [الكنسي] على الأقل.والحقيقة أن هذا الحكم الأخير له ما يبرره خصوصا إذا علمنا نظرة الكنيسة إلى العقائد المخالفة، التي ظلت تكن لها عداء مستحكما، وبالتالي لم يكن هناك حظ لظهور دراسات دينية موضوعية عن هذه الديانات إلا بعد انحصار سيطرتها على مقدرات أوروبا .

هذا فيما يخص علم مقارنة الأديان في العالم الغربي، أما إذا بحثنا هذا الموضوع في العالم الإسلامي، فإننا سنرى بوضوح أن [التعرف] على الديانات المخالفة كان من جملة اهتمامات علماء العقيدة المسلمين الأساسية، وذلك لأسباب متعددة منها : العقيدي، والدعوي، والعلمي المجرد .

ويعود هذا الانفتاح الإسلامي على الأديان في أساسه إلى النظرة الخاصة التي تتميز بها مصادره عن سواها في نظرتها إ لى العقائد المخالفة.فقد أكد القرآن الكريم في أكثر من موضع من سوره حق [الوجود] لأصحاب الديانات التوحيدية، وذلك بفرضه على المؤمنين به

التصديق بالكتب السماوية السابقة عليه من حيث الزمان. وهو أمر باد في ثاني سورة من سوره - حسب ترتيب المصحف العثماني - بل في الآيات الأولى منها، يقول عز وجل: ﴿ **ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ (9). ولم يكتف القرآن بذلك، بل بين أصول محاججة أهل الكتاب فقال تعالى: ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن** ﴾ (10). وهو نهي فتح المجال أمم المسلمين لاتخاذ [الجدل] وسيلة من وسائل الدعوة إلى الإسلام، الأمر الذي يفترض [معرفة] بأصول المخالفين، لعدم اكتمال هذه الطريقة في الإقناع إلا بتحقيقها .

وقد سار النبي ﷺ على هدي القرآن الكريم، وطبق مناهجه، فكان يدعو إلى دين الله بوسائل متعددة تختلف باختلاف المقام، ومنها مجادلاته لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، كما هو مبين في كتب السنن والسير. ولم يكتف النبي ﷺ بذلك بل طبق أحكام القرآن الكريم فيما يخص مبدأ حق الوجود للديانات التوحيدية. وتواتر الأخبار في ذلك من الأمور التي لا تخفى على دارس، ومن ذلك عهوده لأهل الأديان، فقد صالح ﷺ مثلا ملك [إيلة] المسيحي، وأهل [جرباء]، و[أذرح] -في حدود الشام الجنوبية الغربية - قبل رجوعه من تبوك (11). كما أعطى كتب أمان لليهود والنصارى، ومنها كتابه لأهل [نجران] الذي يتبين منه إقراره ﷺ لأهل الأديان على أديانهم، فقد ورد فيه:" **بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد النبي للأسقف أبي الحارث، وأساقفة [نجران]، وكهنتهم، ورهبانهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل، وكثير، جوار الله و رسوله. لايغير أسقف من أسقفته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يغير من حقوقهم و سلطانهم، ولاماكانوا عليه، جوار الله و رسوله أبدا ما**

أصلحوا، و نصحوا عليهم، غير مبتلين بظلم، ولاظالمين ."(12) ولقد انصاع المسلمون لهذه العقائد، والتوجيهات في تعاملهم مع أهل الكتاب، إضافة إلى أنهم توسعوا في النظر في عقائد أخرى عدوها [توحيدية] أيضا، مثل : البرهمية (13).فتكون من ذلك في تاريخ الإسلام اتجاه عام نستطيع أن نوافق على تسميته الشائعة [مبدأ التسامح الديني] .وهو أصل لم يتقرر في تاريخ البشرية نظريا وعمليا إلا بعد إطلالة شمس الفرقان على الربوع التي حكمها المسلمون .

وقد نتج عن تقبل الأصول العقيدية الإسلامية - كما عرضنا قبل قليل - وجود عقائد أخرى في أرض الواقع - رغم تأكيدها في أكثر من موضع من القرآن الكريم والسنة الشريفة على أن العقيدة الحقة هي عقيدة الإسلام، وأن الشريعة الصالحة لآخر الزمان هي شريعته مثل قوله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ - تيار فكري اهتم بدراسة الديانات المخالفة، نشأ عنه في العالم الإسلامي، ولأول مرة في التاريخ الديني للبشرية أيضا ما نستطيع تسميته [علم تاريخ الأديان] وذلك في إطار الدين الإسلامي نفسه، وهو الأمر الذي يخالف فيه الفكر الإسلامي مثيله في الغرب الذي لم يستطع دراسة الأديان بحرية إلا بعد تخلصه من القيود التي كبلته بها الكنيسة باعتبارها ممثلة للدين المسيحي .

ومن المعلوم أن التأليف في هذا الفن الذي تميز به الفكر الإسلامي يقع في دائرة تخصص علماء العقيدة الذين أبدعوا أيما ابداع في عرض أصول الديانات المختلفة وقضاياها العقدية، ويعتبر كتاب[الآراء والديانات] للنوبختي - ت202هـ - أول كتاب في هذا المجال، ثم كثرت بعد ذلك التآليف التي اشتهر منها في معالجة هذا الموضوع [الفصل في الملل والأهواء والنحل] لابن حزم الظاهري - 456 هـ - وكتاب [الملل والنحل] للشهرستاني- ت 548هـ -. ولعل من أبرز المؤلفات التي ظهرت قديما [تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة] للعلامة أبي اسحاق البيروني - 440 هـ-والذي مازال إلى اليوم مصدرا أساسيا لمعرفة الديانات والعادات الهندية في الفكر الإسلامي والغربي على

السواء.(14) هذا إضافة إلى مؤلفات أخرى كثيرة، وفصول ومباحث متناثرة في كتب التاريخ، والأدب ...

ومن المؤكد أن جمهور الدارسين المسلمين المعاصرين يعتبرون هذه المؤلفات التي أبدعها الفكر الإسلامي [مقارنة للأديان] يقول أحدهم:"ولكن هذه الحركة النقدية القائمة على منهج علمي تاريخي دقيق، وعلى الموضوعية...إنما قام بها العلماء المسلمون الذين أنشأوا بحق علم مقارنة الأديان " (15).وتجاوز بعض الدارسين هذا الحد فنسبوا جدال النبي ﷺ وصحابته لأهل الكتاب إلىمقارنة الأديان، يقول البساطي :" علم مقارنة الأديان من العلوم التي اهتم بها المسلمون قديما، وحديثا، وقد ظهر [هذا العلم] منذظهور الإسلام " .(16).

ويبدو أن مفكرينا المعاصرين قد غاب عن أذهانهم- أو لم يعلموا أصلا -حد هذا العلم، فتصوروا أن جهود علمائنا القدامى في عرض مبادىء الأديان ومناقشتها [مقارنة] مع أن الناظر في هذه المؤلفات يتبين، ولأول وهلة، أنها بعيدة تماما عن هذا التخصص الذي يختلف في حده، وفي منا هجه، وفي أهدافه عما أبدعه العلماء المسلمون .

إن موضوعية العلماء المسلمين واستعانتهم بمناهج علمية غاية في الضبط مثل النقد التاريخي للنصوص الدينية، والنقد الداخلي للأفكار التي تنقلها هذه النصوص، حقيقة ثابتة في [تاريخ الفكر] كما أكد ذلك الدارسون المحدثون، سواء كانوا من الشرق أو الغرب .والمراجعة السريعة لما كتبه الإمام ابن حزم في[الفصل] عن المسيحية، وفي [الرد على ابن النغويلة اليهودي]عن اليهودية، أو ما كتبه القاضي عبد الجبار بن أحمد في [المغني] عن البراهمة، أو ماكتبه الجاحظ عن النصارى في [المختار]، كفيل بالإبانة عن درجة الضبط العلمي التي توصل إليها هؤلاء العلماء .ولكن ذلك، في الحقيقة، ليس فيصلا في اعتبار هذا المجهود في البحث الديني[مقارنة للأديان] إذ أنه يفتقد إلى السمات الخاصة التي يجب توافرها لمثل هذه الدراسة .ويتأكد هذا إذا استعرضنا هذا [الإبداع] إذ يبدو لنا [الطابع الجدلي] الذي يميزه، ويسيطر على طريقة عرض

أفكار المخالفين ومناقشتها، مما يجعله أدخل في البحث في [تاريخ الأديان] منه في مقارنتها. ويتضح ما ذهبنا إليه بشكل أكثر وضوحا، إذا استعرضنا طائفة أخرى من المؤلفات لم يعتبرها أحد الدارسين ضمن التآليف في مقارنة الأديان مثل :الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد لأبي الحسين الخياط، ومقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، والتمهيد في الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة لأبي بكر ابن الباقلاني، والإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لأبي المعالي الجويني، محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين لفخر الدين الرازي، وغاية المرام في علم الكلام للآمدي ...وغيرها .حيث نجد أن منهج الدراسة واحد في كلتا المجموعتين من المؤلفات، وهو المنهج الجدلي، كما نجد أن الهدف من هذه الدراسات أيضا واحد، ويتمثل إما في :- نصرة الدين الإسلامي على غيره من الأديان إذا كان الجدال مع أصحاب الديانات المخالفة .أو نصرة آراء الفرقة التي ينتمي إليها المؤلف إذا كان الجدال مع غيرها من الفرق الإسلامية .ومن هنا يتبين أن الدراسات التي قدمها الفكر الإسلامي في الأديان تتمايز عن الدراسة المقارنة حيث تختلف عنها في المنطلق، وفي المنهج، وفي الهدف، وهو ما جهله الدارسون المسلمون المحدثون فاعتبروا كل بحث في عقيدة مخالفة لعقيدة الباحث دراسة مقارنة.وقد انعكس هذا الخلط في الدراسات الإسلامية الحديثة في هذا الفن، إذ يتبين من الرجوع إليها أنها ما زالت [وفية] للمنهج الإسلامي القديم في طابعها الجدلي، وفي أهدافها التي ما زالت تحصرها فيما تحسبه [نصرة للإسلام] باعتباره هدفا وحيدا، حتى أن القارئ يخيل إليه، وهو يقرأ هذه المؤلفات أنه رجع إلى القرن الثالث أو الرابع الهجري.ولولا أن هناك فيصلا يستطيع بواسطته أن يحدد موقعه من التاريخ لامتزجت الكتب الحديثة بالقديمة ولصعب حينئذ فرزها ، وهذا الفيصل هو مجادلة القدماء من علمائنا للبراهمة، والصابئة، واليهود، والنصارى، وحصر الجدال بالنسبة للمحدثين في الاستشراق بأنواعه : العلماني، والمسيحي ، واليهودي .

هذا من حيث عدم قدرة الفكر الإسلامي الحديث على تصور [أبعاد] الدراسة الدينية المقارنة، وفوائدها الكثيرة -كما سنرى في حينه - أما من حيث وجود هذا النوع من الأبحاث بمعناها الأكاديمي فإنه نادر جدا في دائرة الدراسات الدينية في العالم الإسلامي بحيث نستطيع أن نعدها على الأصابع، ومن أمثلة ذلك : الدراسة التي ذيل بها الأستاذ مالك بن نبي كتابه [الظاهرة القرآنية] (17)وكذلك المقارنات التي وردت في محاضرات الشيخ محمد أبي زهرة بين كريشنا والمسيح، وبين بوذا والمسيح أيضا (18).ولكنها - للأسف - لم تكن من إبداعه، بل اكتفى فيها بالنقل من كتاب [العقائد الوثنية في الديانة النصرانية].هذا إضافة إلى بعض الدراسات الجزئية -والتي لم تتمثل المنهج غالبا في معظم مباحثها - -مثل بعض ما ورد في [الإسلام و النصرانية بين العلم والمدنية] للإمام محمدعبده، و[الوحي المحمدي] لرشيد رضا، و[الإسلام يتحدى] لوحيد الدين خان...وغيرها من المؤلفات الدينية التي لا تكاد تخلو من إشارة - أو إشارات - إلى الأديان الأخرى .هذا دون أن ننسى المقارنات الجادة التي وردت في كتاب الأستاذ / أ .كساب [سبحان الله] والذي نشر بالفرنسية بالجزائر سنة 1990 للميلاد .

أما من حيث مستوى الدراسة المقارنة في العالم الإسلامي، فإن الضعف يحيط بها من كل جانب، ونظرة بسيطة إلى مقارنة الأستاذ بن نبي [قصة يوسف في القرآن الكريم والعهد القديم] التي تعتبر أنموذجا لمثل هذه الدراسات في العالم الإسلامي، ومقارنات الأستاذ موريس بوكاي التي ضمها كتابه [الكتاب المقدس والقرآن والعلم] كفيلة بالتدليل على صحة هذه الدعوى .

2- تعريف الدراسة الدينية المقارنة :

ذكرت في أثناء هذا المدخل أن الدراسة الدينية المقارنة تختلف عن [تاريخ الأديان] وعن مجرد عرض عقائد، وأفكار المخالفين، ونقضها :في الحد، وفي المنهج، وفي الهدف.ولابد الآن من تفصيل الحديث في هذا الموضوع لبيان نوع هذا الاختلاف، ومداه، وتأثيره على [فهمنا] للأديان بصفة عامة، والإسلام على وجه الخصوص .

أما حد هذا النوع من البحث فيرتبط ارتباطا وثيقا بتعريف اللفظين اللذين يكونان المصطلح، وهما : المقارنة، والدين. وهذا كفيل - إضافة إلى توضيح الحد - بتوضيح موضوع هذا العلم :

1 - أما المقارنة فإنها مصدر [قرن] الشيء بالشيء، أي: شده إليه. ومنه : قرنت [بتضعيف الراء] الأسارى بالحبال، إذا شددت وثاقهم [صيغة مبالغة].ومنه أيضا: القرين، وهو الأسي.والقرن : الحبل. واقترن الشيء بغيره، إذا صاحبه (19).

والملاحظ أن كل هذه المعاني اللغوية للقرن تدل على اشتراك مادي في شيء واحد:هو الحالة التي يكون عليها القرين مع قرينه من المصاحبة في الشد [وهو المعنى الأصلي] أو في غيره، مثل: القرين بمعنى الزوج، أو المساوي من حيث السن ...ومن هنا يأخذ [القرن] معنى الصحبة مطلقا .

واستنادا إلى الدلالة اللغوية، فإن الدراسة الدينية -إذا كانت مقارنة -تحيلنا إلى [المساواة] المفترضة بين المبحثين موضوع الدراسة، عند البدء فيها.ولهذا، ورغم صعوبة تحقيق هذا الشرط بالنسبة للدارس المؤمن، لعدم قدرته على [التملص] من دينه، وثقافته، وهو ما أشار إليه المستشرق لوازي بقوله :" يمكننا أن نقول عن جميع الأديان أنها ذات قيمة مطلقة بالنسبة إلى إدراك أتباع كل منها "(20). فإن المطلوب على الأقل هو : محاولة استبعاد التعبير العاطفي عند الاستدلال للقضايا موضوع البحث، والسعي قدر الإمكان لتحقيق [الموضوعية] التي تشكل عصب كل دراسة علمية.وهو أمر استطاع تحقيقه علماء الإسلام القدامى في دراساتهم في الديانات المخالفة بشكل سليم- في إطار خصوصية زمانهم و اهتماماتهم - وعجز عن تحقيق جزء يسيرمن هذه الموضوعية الفكر الإسلامي الحديث في دراساته التي تشبه موضوعاتها ما عالجه القدامى، إذ نلاحظ عناصر [الذاتية] و [الحدة] و [العاطفية] غالبة عليها، مما يجعل الاستدلال العلمي المفترض يتحول إلى [خطب] تلقى كتابة (21).

2 - أما الدين، فإن معناه الأصلي في اللغة هو:مستحقات طرف يدعى [دائنا] عند طرف ثان هو [المدين].وهذا المعنى موجود في تعريف الدين

من حيث الشرع، حيث تستبدل فقط فيه العلاقة المادية بعلاقة معنوية، فيصبح الدين بهذا هو: العلاقة بين الله عز وجل باعتباره دائنا، وبين الإنسان باعتباره مدينا.(22) وتكون [المستحقات] هنا هي: العبادة التي يؤديها الطرف الثاني للطرف الأول، باعتبار ذلك [شكرا] على النعم - " وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " - التي تفضل بها الخالق عز وجل على المخلوق.ومن المعلوم ضرورة أن بيان هذه العلاقة أولا، وطرق شكر [النعم] ثانيا موجود في [كتب] أصحاب الديانات .

ومعنى هذا أن الدراسة المقارنة للأديان هي:البحث في مصادر، وأصول، وفروع، وتصورات أصحاب الملل المختلفة بمنهج يساوي بينها في المنطلق أو البدء، من حيث أنها [حقائق] عند أصحابها.وهي الحالة النفسية التي [يفترض] اتسام الباحث بها، والتي تؤدي به إلى السعي لتحقيق [الموضوعية] بحيث تكون النتائج نتائج علمية بالنظر إلى سلامة المناهج التي أوصلت إليها مهما كان نوعها.وبناء على ما سبق فإن الباحث الذي يعترض لمثل هذا البحث المقارن، ورغم علمه أن معتقده هو "وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك و المعاملات" (23) إلا أنه، وبمجرد الدخول في خضم الدرس يجب أن يحاول [إخفاء] انتمائه، ويتخذ الموضوعية ديدنه.

ومن المعلوم أن مجالات الدراسة المقارنة واسعة، ومتشعبة، سعة وتشعب الأديان ولهذا فقد تكون عرضا لمبادىء الأديان على دلالات العقول، أوحقائق العلوم، أو التاريخ ... أو مقارنة بين الاعتقادات المختلفة، هذا إذا كانت الدراسة في المضامين.أو بحثا، وتوثيقا تاريخيا إذا كانت دراسة في المصادر ...أو في غير ما ذكرنا، هذا إضافة إلى أنها قد تكون دراسة جزئية، أو شاملة.و يجب التنبيه هنا إلى بدهية قد يغفل عن اعتبارها البعض، وهي: أنه لا إمكان لقيام بحث من هذا النوع إلا إذا كانت مادته متوافرة في مصادر دينين على الأقل .

وقد يعترض معترض هنا، فيقول بأن مثل هذا الطرح يعتبر خروجا عن الإسلام - ولو جزئيا - إضافة إلى أنه يشكل خطرا على انتماء هذا الباحث ؟.

والحقيقة أن هذا السلوك لا يعتبر أبدا خروجا بأي معنى من المعاني عن الإسلام - وأي دين آخر ينتمي إليه أي دارس -لأن الجدل أصل من أصول الدعوة إلى الإسلام، وهو منهج يفترض عرضا منظما تنظيما علميا لعقائده، واحتجاج سليم مقنع لها. إضافة إلى معرفة بأصول الديانات سواء من المصادر الإسلامية أو من مصادرها الخاصة .

أما من حيث الخطر [الذي يخاف منه]على انتماء المسلم الديني، إذا هو راح [يعرف] آراء أصحاب الديانات في [مزاعمهم]، والذي يتمثل في: إمكانية تغلغلها إلى عقيدته،أو اهتزاز الأصول الإسلامية في نفسه فمردود، ودليل ذلك أن [الدين الصحيح] يصمد أمام جميع ضروب الدراسة العلمية - نعني بالعلمية هنا، تطبيق المناهج التي تتماشى مع خصوصية الدين من حيث تميزه عن غيره من [المعلومات] الإنسانية في مصادره، وفي أهدافه، وطرق تعبيره ...-بحيث لا يبطل منه - في منطق الدين - إلا الضعيف، سواء تمثل ذلك الضعف في هشاشة مصادره، أو في تطرف تأويل نصوصه، أو في عدم فهمه على الوجه الذي يجب له في زمن سابق (24) ...ولتجسيم هذا التصور الذي نطرحه لا بأس من الاستعانة بتجربتين تاريخيتين إحداهما مر بها العالم المسيحي، والأخرى مر بها المجتمع الإسلامي .

1 - أما التجربة المسيحية فتتمثل في نتائج الحركة العلمانية على تصورات المتدين المسيحي، الذي أصبح أكثر قدرة على [تحمل] وجود ديانات أخرى في العالم، وفي مجتمعه أيضا.وهذا عنصر أصيل في المسيحية [الحقة] غيبته قرون من السيطرة الكنسية على الفكر الديني. هذا إضافة إلى ما يلاحظه المطلع على أبحاث الأوروبيين عن المسيح عليه السلام مثلا في الكتاب الديني [الحر] (25) من تحقيقها لنقلة في تصور شخصيته، ودعوته تصورا جديدا أرجع للمسيح [نبوته] التي نفاها عنه قرونا طويلة الكنسيون.والحقيقة التي لا مراء فيها أن المسلم - المطلع على ما كتبه هؤلاء العلماء الغربيون- ليندهش من تطابق صورته عليه السلام في هذه الدراسات مع عقيدة القرآن الكريم فيه.

ومعنى هذا بالنسبة لكل ناظر متأمل أن المسيحية الحقة -وهي التي نص عليها القرآن الكريم، وما زالت الكثير من آثارها في بطون كتب المسيحيين، إذا نظر فيها دون تأويل مغرض أو موجه لخدمة تصورات معينة -لم تتضرر مطلقا من [نقد] العلمانيين، حيث لم يفلح هؤلاء إلا حيث وجدوا [دسا] و [تحريفا] في النصوص الأصلية، أو [حيدة] في عقيدة وسلوك المسيحيين .

2 - أما في العالم الإسلامي فإن حركة [النقد] الاستشراقية، وما صاحبها من دعوة [مسلمين] في بدايات هذا القرن إلى إطراح الكثير من عقائد الإسلام،لم تنتج - رغم عنف الحركة والدعوة من ناحية، وحدوثهما في مرحلة فراغ ديني وحضاري إسلامي من ناحية ثانية، وتحت حكم الاستعمار الغربي من ناحية ثالثة -تحطيمها، بل أحدثت أثرا إيجابيا يتمثل في إسهامها الكبير في التأثير على حركة [اطراح] ما لم يكن من الممكن اطراحه في قرون من الزمان لو انتظرنا انطلاق هذه الحركة من عالم الإسلام لوحده، وهو القضاء على ما لا يحصى من مظاهر [الشرك] و [الجهل] و[التقوقع] الغريبة عن مصادر الإسلام، وعن روحه (26).

ولا بد الآن من العودة إلى موضوعنا، وهو نفي تشكيل هذا المنهج خطرا علىعقيدة المسلم لنقرر أن أقصى ما تصل إليه دعوتنا إلى تحقيق الموضوعية في البحث المقارن هو : إثبات كل أصل ثبت أمام الدراسة العلمية الجادة، ولو كان مصدره غير الإسلام، والتوقف أمام كل أمر لم يتقبله البحث، ولو كان اسلاميا.وليس يوجد في أحد هذين الأمرين ما يخاف منه على عقيدة معتقد، ذلك أن الإسلام - عقيدة وتاريخ فكر - يحتوي على إجابات تحمي أتباعه من [الضلال] وبيان ذلك فيما يخص ما نحن بصدده أن الباحث المسلم لا يبقى أمامه إذا انتهى به بحثه إلى النتائج التي قررناها قبل قليل (27) إلا تأصيلها عقيديا، وعموما فإنها لا تخلو من أن تكون :

1 - مما تواردت به أدلة الكتب السماوية، التي يقرر الإسلام حقيقة الوحي فيها نصا.أو مما توارد وجوده في الأصول الإسلامية وفي غيرها من أصول الديانات [غير التوحيدية] التي

تفتـــح [روح] المصـــادر الإسلامية [إمكانية] كونها آثارا لديانات توحيدية، وهو ما سار على هديه علماؤنا القدامى فلم يقرروا نبوة أحد إلا إذا ورد النص عليه في الكتاب أو السنة، وفتحوا مجال الإمكان لكون من لم يرد اسمه فيهما نبيا، وهو فهم سليم لقوله تعالى مثلا : « **و إن من أمة إلى خلا فيها نذير**» (28) هذا في حالة تقرير البحث لأصل لإسلامي وجده الباحث في كتب غير المسلمين. أما إذا لم يوجد مثله في الأصول الإسلامية، فيجب على الباحث درس إمكانية ضمه إلى[البناء الفكري الإسلامي] بالنظر إلى المحيط الروحي والفكري العام الذي يشعه الإسلام، أو عدم إمكانية ذلك .

2 – أما إذا كان الأمر يرجع إلى ما وجده الباحث من عدم صحة في الطرح الإسلامي، فإن ذلك لايخلو أن يكون راجعا إلىعدم الضبط في النقل فيقرر ذلك، أو إلىخطإ في [التفسير] فيسعى الباحث إلىوضع الأمر في نصابه. ويبقى أن ننبه أن الدراسة الدينية المقارنة لا تهدف – عند النظر– إلى الإقناع بصحة دين ما – رغم أن هذا أحد أهدافها– ولكن إلى إثراء تصور أصحاب أي دين لما يوجد في أصوله ذاتها. ويرتكز هذا الأصل الذي قررناه هنا إلى أنه لا يوجد– عند التحقيق– علاقة بين الإيمان وبين العلم – إذا حصرنا هذه العلاقة في كون الثاني مصدرا للأول–صحيح ان العلم يكسب المومن متانة في العقيدة، وصفاء في الروح، وسواء في السلوك لا يوجد عند غيره من المومنين، ولكنه ليس مصدرا للإيمان بأي حال من الأحوال. إذ العقيدة أو البحث عن الحقيقة يتصلان بشيء أكثر عمقا في الإنسان، وأكثر تشعبا حتى إنه ليستحيل عمليا معرفة لماذا يؤمن بعض الناس ويكفر بعضهم بالشيءالواحد. ومثال علماء المستشرقين واضح في هذا.

هذا عن منهج الدراسة الدينية المقارنة ، أما عن الأهداف المرجوة منها، فإن هناك خطأ في تصورها عند الدارسين المسلمين المحدثين الذين ما زالوا – بتأثير الفكر الإسلامي القديم – ينظرون إلى مثل هذا البحث على أساس أنه مجرد وسيلة من وسائل نصرة الطرح الإسلامي لأي قضية من القضايا، غير منتبهين إلى أن مثل هذا الهدف من الممكن

التوصل إلى تحقيقه - في إطار البحث العلمي الذي هو موضوعنا، أما إذا وسعنا مدى العوامل التي من الممكن لها أن تساهم في نشر الإسلام فإنها كثيرة وأحسنها على الإطلاق: تقديم أنموذج حي للصلاح الديني والدنيوي - دون إجهاد النفس في عقد أي مقارنات، إذ يستطيع الباحث الاكتفاء بالتعريف بموقف الإسلام، وتوضيحه للقارىء، وكفى.و يجد ما ذكرناه هنا تطبيقا له في جل الدراسات الإسلامية التي يبدو فيها جليا أن المؤلفين المسلمين يتخذون من استجلاب [فكرة] من أفكار الديانات المختلفة، ثم تحطيمها ببيان تهافتها [سلما] للاستدلال علىسمو الفكرة الإسلامية.وهو منهج غاية في [الإسفاف] خصوصا وأن معظم الدارسين الذين يتوسلون بهذه الوسيلة لا يجشمون أنفسهم مشقة النظر في هذه [الرؤى] التي انتقدوها.والعجب أن نجد أن هؤلاء الدارسين أنفسهم ينتقدون [المستشرقين] انتقادا شديدا - وهم على حق في ذلك - يحصرونه غالبا في عدم تكليف أنفسهم عناء البحث العميق، والشامل، و العلمي في الأصول الإسلامية .ومن هنا، فإنه كما يصح في غالبية المستشرقين قول الشاعر العربي :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

فإنه يصح أيضا في معظم الدارسين المسلمين المحدثين .

والواقع أن تحقيق أهداف الدراسة الدينية المقارنة -كما أتصورها - يبنى أساسا على وجوب التسليم بقاعدة فكرية وهي: إمكان مساعدة أفكار الأمم غير الإسلامية الفكر الإسلامي على حل بعض إشكالياته.وهذا المنطلق هو الذي لم يستطع معظم الدارسين المسلمين تحقيقه نفسيا(29)، مما جعل إنتاجهم صورة عن مؤلفات علمائنا القدامى، ومناهجهم شبيهة بمناهج أولئك الأعلام شبه الماء بالماء مع أن المفروض أن تحدث نقلة في هذين الأمرين تعود لما تحقق منذ تلك القرون من فتوحات علمية في مجال اكتشاف مصادر الأديان وتحقيقها ودراستها ونشرها، وما حدث من التقارب بين أمم الأرض...

ونحن نعتقد أن هذا [النقص] الموجود في العقلية الإسلامية الحديثة يعود إلى [تشوش] المفاهيم لديها، بحيث أنها لم

تستطع التمييز بين [العقيدة] وبين [الفكر] -إضافة إلى ما أشرنا إليه من عجز عن إدراك مستوى الحضارة المعاصرة -أي بين مسلمات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من جهة، والإبداع الفكري الذي ينطلق منهما، ولكنه قد يحلق في سماء [إثراء] الفهم الإسلامي لهما عاليا، مع أن التمييز بينهما يسير، ويكفي في بيان ذلك أن يعرف المسلم أن أصول العقيدة [إلهية]، وهي ما لا ينفك عنها المؤمن بحال وإلا فقد تلك الصفة. أما الفكر فهو [فهم] [إنساني]خاضع [لعبقرية] الإنسان حينا و[لغبائه] أحيانا أخرى.ومعنى هذا أن هناك دائرة تحيط بها الصحة من جانب النقل والقداسة من جانب المصدر هي دائرة [الإيمان]، وأن هناك دائرة إنسانية هي دائرة الاجتهاد.والمزج بينهما - وهي عادة إسلامية كما سبق وأشرنا - ليس في صالح هاتين الدائرتين على السواء (30).إذ يصبح [الفكر]حين يمتزج بالعقيدة، بحيث لا تتميز حدوده [مقدسا] فيشوش على العقيدة الصحيحة مسلماتها لأنه يصبح [المنظار] الذي تعرض من خلاله قضاياها ، هذا إضافة إلى [تقييده] لنفسه فيصبح أسيرا لا يستطيع الإجابة عن [الاهتمامات] الجديدة لأصحابها كلما تقدم الزمان.هذا دون أن ننسى أن هذا النوع من الفكر سيشكل على مر الأيام [حاجزا] أمام أفهام أخرى تريد أن تتصل بهذه العقيدة لتستوحيها فيما يهمها من قضايا (31).أما بالنسبة للعقيدة فإنها تصبح [إنسانية] بما يطرأ من [تطويع] لأصولها ،لتدخل في [كيس] الفكر .(32)

وقد انتبه المفكرون المسلمون القدامى لهذه القضية، ووجدوا لها حلا ناسب إلى حد كبير زمانهم واهتمامتهم، حيث اتخذ بعضهم من النظر العقلي، والبعض الآخر من الإسرائيليات - بمعناها الضيق - والخرافات وسائل للإجابة على الأسئلة التي شغلت العقل المسلم ولم يجد لها جوابا في مصادره الدينية (33).والأمثلة على هذا الأمر كثيرة بحيث لا يحصيها عد، وسنرى بعضها في الدراسة النموذجية التي طبق فيها الباحث نظرته إلى [مقارنة الأديان]والتي خصصها لدراسة موضوع الذبيح ومتعلقاته (السن، المهجر، الهدف...) والتي ستتبع هذا المدخل.

وعلى العكس من المفكر الإسلامي القديم، فإن المفكر المسلم الحديث ما زال يقف حائرا أمام روايات [الآخر] رغم استعانته بهذه الروايات في أبحاثه دون أن يشعر لتغلغلها في بنائه الفكري من قراءاته في المراجع الإسلامية التي نقلتها، واستخدمتها لسد حاجتها في زمانها .

3- أهداف الدراسة الدينية المقارنة :

وبناء على ما تقدم فإن الباحث المسلم إذا استطاع أن [يسلم] بأن كل فكرة دينية أو فكرية، مهما كان مصدرها- العلم بمصادر الأفكار أحد أهداف المقارنة كما سنرى - من الممكن أن [تؤكد] مسلماته أو [تثري] فكره، مع استحضاره - أثناء البحث العلمي الحقيقي - أن الحق يعلو ولا يعلى عليه أبدا، فإنه سيستفيد من الدراسة الدينية المقارنة في مجالات متعددة، سأذكر الآن بعض ما يحضرني منها -وصفا - وسيجدها القارىء وغيرها -كما قلت قبل قليل- في ثنايا الدراسة التطبيقية:

1 - تشكل الدراسة الدينية المقارنة -إن عولجت بما يجب من التعمق والإحاطة - أصلا من أصول المنافحة السليمة عن الإسلام، وذلك بتبيينها القواعد والأسس العقيدية، والشرعية، والعلمية المؤسسة التي يطرحها هذا الدين مقارنة بغيره من العقائد، وذلك عبر الحوار الذي تديره الدراسة مع كل صاحب [عقيدة] ومع كل [متشكك] في كل عقيدة .

2 - تساهم مثل هذه الدراسة في تصحيح نظرتنا إلى الكتب المقدسة للديانات عموما، وللأديان التوحيدية بصفة خاصة.فنستبدل بنظرة علمائنا القدامى التي كانت تقابل هذه الكتب بالشك- اعتمادا على كثير مما ورد في الأصول، ومنه ما ورد في الحديث من نص الرسول ﷺ علىعدم تصديق أهل الكتاب ولا تكذيبهم (34) -ثم تعتمد عليها اعتمادا يكاد يكون كليا في تحقيق كثير من المسائل التي تعرض لها بالبحث، بنظرة تقديرية لما بقي في هذه الكتب المقدسة من الحقيقة، مع وجوب النظر فيها بعين الناقد الذي يرصد كل ما فيها من أصول، وفروع نجدها في مصادرنا ، والبحث عن العناصر المحرفة، والمدسوسة، والنص عليها، مع ضرورة البحث -خصوصا -عن [الأسباب العميقة] لذلك، والتي تختفي غالبا

وراء [الأسباب الظاهرة] التي ينبغي تجاوزها -إن وجد مبرر علمي- لعدم صحتها في غالب الأحوال.وهذه أمور تساهم بشكل مباشر في تعميق الطرح العقيدي الإسلامي، وعرضه بطرق علمية مقبولة.مع إسهامها في توسيع مجال عمل العقلية الإسلامية بما تستفيده من النظر في قصص وشرائع الديانات الأخرى. ويجب التنبيه هنا على أن هذا المسعى سوف يعرفنا علىأسباب بعض مظاهر [الحيدات] في [تصورات] المسلمين بناء على [التشابه] الإنساني بينهم وغيرهم من أصحاب الأديان، هذا إضافة إلى فائدته [الإستراتيجية] التي تتمثل في إمكان القدرة على [التنبىء] بالظواهر الدينية والاجتماعية، خصوصا لو استطاع المسلمون تأسيس [مرصد] يهتم بذلك .

3 - أما الهدف الثالث من الدراسات المقارنة فهو يتوجه إلى الروايات الإسلامية المختلفة - غير القرآن الكريم والسنة الصحيحة - فيتعامل معها تعاملاجديدا مبنيا على النظر النقدي العلمي لها.وهو هدف تهيء سبله بشكل جيد دراسة الديانات السابقة على الإسلام، فهي كفيلة بتبيين العنصرالكتابي، والأسطوري، والخرافي في الروايات الإسلامية ذاتها. ويعود ذلك إلى أن هذه العناصر - في الغالب الأعم -لم تدخل العقول المسلمة إلا من باب روايات أهل الكتب، وإن كان للوضاع المسلمين دور في الوضع، وفي النشر.والملاحظ أنهم في هذا الدور الذي قاموا به كانوا - أيضا - يتخذون منها أمثلة يقيسون عليها وضعهم.وفي هذا الرأي دعوة إلى العقل المسلم لكيلا يحتكم إلى شيء في مجال الغيب إلا لما ثبت في المصادر الإسلامية [نصا] أو [مفهوما] وعلى هذا في حقيقة الأمر يتوقف البناء الفكري للطرح الإسلامي الآني، والمستقبلي .

وتضاف إلى هذه الأهداف مقاصد أخرى كثيرة لعل من أهمها [الموازنة] بين الطرح الإسلامي، والكتابي للقضايا العقيدية المختلفة، وهو هدف حيوي خصوصا إذا علمنا أن ورود قصص الأنبياء مثلا في القرآن الكريم - وهي القصص التي يعرض من خلالها الكثير من عقائده، وصورة الوحي، والرسالة فيه - دليل عند الغالبية الساحقة من المستشرقين على تأثر النبي

ﷺ المباشر أو غير المباشر بكتب الديانتين التوحيديتين السابقتين عليه، وهما : اليهودية والمسيحية، دون أن يبين أحدهم بشكل علمي طرق هذا التأثر الذي نقل به الرسول الخاتم ﷺ معلوماتهما إلى القرآن الكريم.وهي الفكرة التي تلاحظ نتيجتها في تركيزهم جميعا على بحث موضوع وجود هاتين الديانتين في أرض العرب قبل الإسلام .إضافة إلى تصريح الكثيرين منهم بفكرة النقل في مؤلفاتهم.و مثال ما ذكرنا ما كتبه المستشرق: إينياس جولدزيهر، الذي كانت دعوة النبي العربي عنده : " مزيجا منتقى من مبادىء دينية تحصل عليها من معايشته لمفاهيم يهودية، ومسيحية، وغيرها .وقد أثرت فيه تأ ثيرا بعيدا ... ولذلك تلقاها بصدق - عبر إلهام داخلي زادته قوة الأحاسيس الخارجية -كوحي من الله "(35). وعقائد الإسلام، وشعائره، إضافة إلى هذا ليست مستمدة - عند جولدزيهر - من هاتين الديانتين فقط، بل من مصادر متعددة، فالحج مثلا تم تبنيه عن تقاليد عربية وثنية حافظ عليها رسول الدين الجديد (36).وهذا يدل على أن مجرد وجود بعض التشابه بين موضوعات القرآن الكريم والكتاب المقدس كاف - في نظرهم - و بمجرد إطلالة توجهها عوامل ذاتية مختلفة إلى تنبيه القارىء - كما يقول صاحب كتاب [الكنيسة والإسلام] - إلى: "درجة تأثير هذه التيارات في الدين الجديد "مع طلبه منه " ألا يندهش إذا علم أن محمدا قد ورث كل هذه الأفكار" (37).ويجب أن أؤكد هنا على أنني، ومن خلال قراءاتي لما تيسر من الإنتاج الغربي عن الإسلام لم أجد إلا قلة من المفكرين أتعبوا أنفسهم بالنظر في الروايات الإسلامية ومقارنتها بمثيلاتها الكتابية، أما الأغلبية فإنها لا تحاول ذلك مطلقا.وعلى كل فقد ظهر في الثلاثين سنة الأخيرة بعض الغربيين ممن قام ببعض هذا العمل بدلا عن الأغلبية منهم، ومن هؤلاء :موريس بوكاي، الذي راح يرد في كامل أحد مؤلفاته [علميا] على ادعاءات المسيحيين، واليهود، ويؤكد في بحثه لموضوعات متعددة مثل : قصة الخلق، والطوفان تناقض الروايات الكتابية، ويحكم في كل مرة " بأن لأصالة النص القرآني مكانة

منفردة بين كتب الوحي لا ينازعه فيها العهد القديم، ولا الجديد"(38). وأخيرا، فإن هذا المدخل يعتبر محاولة فقط في وضع منهج جديد للدراسة الدينية عموما، والمقارنة على وجه الخصوص.وهو يعتمد على نظرة تقوم على ما تحقق لدى الباحث أثناء دراسته للقرآن الكريم من انفتاح وشمولية، وقدرة نصوصه وأصوله على استيعاب ما لا حصر له من القضايا...وهوكذلك يستجيب (للغرائب) التي قابلها عند قراءته في الفكر الإسلامي الذي يقصر إلى حد بعيد -غير متناه في الحقيقة- عن الفهم أو اللحوق بالتصورات التي احتواها القرآن الكريم، والأهداف التي سعى إلى بلوغها.ويبقى أن هذه العجالة لا تعبر أبدا -إلا بشكل هزيل- على ما يحسه الباحث من تقصير علماء المسلمين اتجاه دينهم.وهو يرجو لهذا أن يساهم في مستقبل الأيام في تشكيل تصور يوضح - قدر الإمكان - أصول الاسلام في نظرتها إلى الدين، والتدين، ولعل بعض ذلك سيتحقق بالدراسة المقارنة التي ترتبط بهذا المدخل، والمخصصة لدراسة قصة الذبيح في القرآن الكريم والعهد القديم .

الهوامش

(1) المسيحية نشأتها وتطورها - شارل جان بيار - ت / عبد الحليم محمود - ص 72 .

(2) قصة الحضارة -ول ديورانت - ت/ محمد بدران - ج 14 .

(3) 1235 - 1314 . مبشر ، وراهب فرانسيسكاني ، ومستشرق شهير . كان مهووسا بتبشير العالم الإسلامي ، أو غزوه ، وقد دعا إلى ذلك كامل أوروبا التي قبلت مخططه التبشيري في مجمع فيينا -1311 - 1312 - و قد كانت إجادة العربية أهم شروط تحقيقه . قتل في بجاية (من أعمال الجزائر) بعد أن طرد منها ،ومن تونس قبلها مرة أولى . انظر / المستشرقون -نجيب العقيقي - ج 1 - ص 122 .

(4) المستشرقون - نجيب العقيقي - ص 114 و ما بعدها .

(5) قام المسيحيون الشرقيون بدءا من الأب يوحنا الدمشقي بعرض بعض عقائد المسلمين في مؤلفاتهم ، والرد عليها،كما قام بعض المسيحيين الغربيين بمثل هذا العمل خصوصا في إسبانيا أثناء جدالهم للمسلمين .
ولكن لم يكن هذا البحث يسعى لتحقيق أهداف الدراسة الدينية المقارنة كما نتصورها، بل خاضعا لمبدأ الدفاع عن المسيحية

(6) الدين الطبيعي، أو الاتجاه التأليهي مذهب يقر الوحي، ولكنه يعتقد أن قصارى ما يستطيع تقديمه للإنسان هو نقل [شيئ ما] من الماضي ، لا يجب التحدث عنه إلا

على سبيل الاحتمال . ولذلك فإن اختبار صدق الوحي ينبغي في النهاية أن يقوم في تطابقه مع [الفكرات العامة] للديانة الطبيعية التي تقوم على خمس أفكار هي:

1 -هناك رب أعلى. 2 -أن عنايته تتجلى في الطبيعة. 3 -أنه حكيم وأبدي. 4 -أنه يتصرف في العالم بعدل مطلق . 5 - أن الدين لا يمكن إقامته على سجلات التاريخ .

وقد شكل هذا الاتجاه في تاريخ الفكر الغربي أساسا من أسس التحول إلى الإلحاد التام .. وكان من أبرز رواده اللورد تشربوري[1581 - 1648] وأنطوني كولينز [1676 - 1713] وجون طولند [1670 - 1722] .انظر/التاريخ و كيف يفسرونه - آلبان ويدغري - ترجمة عبد العزيز جاويد -ص 153 ، 154.

(7) انظر l' Atheisme - Henri Arvon - P38 . et voir / Introduction au Coran - Regis Blachere - Preface .

(8)لم تظهر - عند التحقيق - أي دراسة تتمثل فيها أهداف الدراسة المقارنة بكل ما تعنيه من خصوصية، لا في الشرق ولا في الغرب ، وإنما وجد في الغرب محاولات جادة كمحاولة موريس بوكاي، وبعض الأبحاث الجزئية في مؤلفات بعض المستشرقين مثل : فريتجوف شيون، ونكلسون...

(9) البقرة / 1 -5 .

(10) العنكبوت / 6 .

(11) السيرة النبوية - ابن كثير - ج2 - ص 278 .

(12) السابق - ص 312 ، 313 .

(13) انظر / أعلام النبوة للماوردي - ص 19 . والمغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار بن أحمد - ج15 - ص 109 - 146 .

(14) انظر / دائرة المعارف الاسلامية -مادة البيروني - كارل بروكلمان -ج 4 - ص 397 ...وانظر تعليق / محمد مسعود على بروكلمان - ص 402 ، 403.

(15) محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة - مقدمة د / عمار طالبي - ص 8 . و انظر الموقف نفسه في / سلسلة مقارنة الأديان [كتاب اليهودية] د/ أحمد شلبي - ص 25.

(16) مقارنة الأديان - د / أحمد سعد الدين البساطي، ج1،ص3

(17) عقد الأستاذ بن نبي فيه مقارنة بين قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم ، والعهد القديم .

(18) انظر / مقارنة الأديان - محمد أبو زهرة - الفصل الخاص بالمقارنة بين بوذا و المسيح ، و الفصل الخاص بالمقارنة بين كريشنا والمسيح .

(19) لسان العرب المحيط - ابن منظور - مج 5 - مادة قرن - ص 75 .

(20) العقيدة والشريعة في للإسلام - ا . جولدتسيهر - ترجمة محمد يوسف موسى - ص 20

(21) تعود قدرة علمائنا القدامىعلى البحث الموضوعي ، حسب ما نعتقد إلى تمثلهم السليم للإسلام من ناحية، وإلى تحررهم نفسيا من [عقدة] الخوف من أصحاب

على سبيل الاحتمال . ولذلك فإن اختبار صدق الوحي ينبغي في النهاية أن يقوم في تطابقه مع [الفكرات العامة] للديانة الطبيعية التي تقوم على خمس أفكار هي:

1 -هناك رب أعلى. 2 -أن عنايته تتجلى في الطبيعة. 3 -أنه حكيم وأبدي. 4 -أنه يتصرف في العالم بعدل مطلق . 5 - أن الدين لا يمكن إقامته على سجلات التاريخ .

وقد شكل هذا الاتجاه في تاريخ الفكر الغربي أساسا من أسس التحول إلى الإلحاد التام . وكان من أبرز رواده اللورد تشربوري[1581 - 1648] وأنطوني كولينز [1676 - 1713] وجون طولند [1670 - 1722] .انظر/التاريخ و كيف يفسرونه - آلبان ويدغري - ترجمة عبد العزيز جاويد -ص 153 ، 154.

(7) انظر l' Atheisme - Henri Arvon - P38 . et voir / Introduction au Coran - Regis Blachere - Preface .

(8)لم تظهر - عند التحقيق - أي دراسة تتمثل فيها أهداف الدراسة المقارنة بكل ما تعنيه من خصوصية، لا في الشرق ولا في الغرب ، وإنما وجد في الغرب محاولات جادة كمحاولة موريس بوكاي، وبعض الأبحاث الجزئية في مؤلافات بعض المستشرقين مثل : فريتجوف شيون، ونكلسون...

(9) البقرة / 1 -5 .

(10) العنكبوت / 6 .

(11) السيرة النبوية - ابن كثير - ج2 - ص 278 .

(12) السابق - ص 312 ، 313 .

(13) انظر / أعلام النبوة للماوردي - ص 19 . والمغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبد الجبار بن أحمد - ج15 - ص 109 - 146 .

(14) انظر / دائرة المعارف الاسلامية -مادة البيروني - كارل بروكلمان -ج 4 - ص 397 ...وانظر تعليق / محمد مسعود على بروكلمان - ص 402 ، 403.

(15) محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة - مقدمة د / عمار طالبي - ص 8 . و انظر الموقف نفسه في / سلسلة مقارنة الأديان [كتاب اليهودية] د/ أحمد شلبي - ص 25.

(16) مقارنة الأديان - د / أحمد سعد الدين البساطي، ج1،ص3

(17) عقد الأستاذ بن نبي فيه مقارنة بين قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم ، والعهد القديم .

(18) انظر / مقارنة الأديان - محمد أبو زهرة - الفصل الخاص بالمقارنة بين بوذا و المسيح ، و الفصل الخاص بالمقارنة بين كريشنا والمسيح .

(19) لسان العرب المحيط - ابن منظور - مج 5 - مادة قرن - ص 75 .

(20) العقيدة والشريعة في للإسلام - ا . جولدتسيهر - ترجمة محمد يوسف موسى - ص 20

(21) تعود قدرة علمائنا القدامىعلى البحث الموضوعي ، حسب ما نعتقد إلى تمثلهم السليم للإسلام من ناحية، وإلى تحررهم نفسيا من [عقدة] الخوف من أصحاب

الديانات باعتبارهم أصحاب الحضارة . و انعدام هذه [الضمانات] يفسر إلى حد كبير [تقوقع] الفكر الإسلامي الحديث

(22) انظر / تاريخ الأديان –د/ محمد الزحيلي و د/ يوسف العش – ص 14 . وقد ورد هذا المعنى الذي أشرنا إليه بعينه في قوله عز وجل :﴿ **فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين**﴾

(23) السابق –ص 20 .

(24) الحقيقة أن قدرة النصوص الدينية على تجاوز إسار المكان ، والزمان . والاستجابة لكل احتياجات المتدينين يعتبر دليلا على [خلود] الدين ، وبالتالي [إعجاز] ظاهرة التدين ، بغض النظر عن درجة صحة أديان بعينها .

(25) عنصر حرية البحث ، والنظرمضمون لكل مسلم قادر علميا على تحقيق ذلك ، في أصول الإسلام ذاتها.بينما العكس صحيح تماما في المسيحية كما [فرضتها] المجامع المختلفة. وقدحدث تحول غريب في تطبيق هذه المبادىء في المجتمعين ، في الزمان نفسه تقريبا ، ويتمثل في توجه المسلمين نحو غلق باب الاجتهاد حوالي القرن السابع الهجري ، وبالتالي قلبوا طبيعة توجه الإسلام نفسه . بينما نلاحظ تحولا مسيحيا تمثل في [الجهاد] من أجل تحقيق حرية الأوروبي في التعامل مع المسيحية ، منذ القرن الرابع عشر الميلادي . والواقع أن هذا يعبر بالنسبة لي عن حقيقتين :

1 – أن هذا دليل على ارتباط ازدهار التدين ، وتقدم المتدين بالحرية التي تتحقق في إطار الدين نفسه .

2 – أن تعاقب الحضارات واقع في إطار التدبير الإلهي لسير العالم ، ولذلك فإن الكثير من [علامات] بدء مرحلة التداول – " وتلك الأيام نداولها بين الناس " – تبقى خفية أثناء حدوثه ، وحتى بعد حدوثه بالنسبة لمن لم يكن التأمل في [القرون] من عادته .

(26) لا يصح هذا الحكم مطلقا إذ أن هناك بعض البلدان الإسلامية التي حدث بها إحياء واسع لعلوم الدين، دون ان تساهم المؤثرات الخارجية في أصولها .واوضح مثال على ذلك حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية .

(27) الحقيقة أن الكلام الذي سيأتي له علاقة وطيدة بأهداف الدرا سة الدينية المقارنة التي سنخصصها ببعض الأفكار ، ولكن عدم اكتمال الحديث عن المنهج إلا بإيراده يدفعنا إلى عرض هذا الأمر في هذا الموضع

(28) انظر / الفصل في الملل و الأهواء والنحل – ابن حزم –ج 4 – ص 104 .

(29) تجب هنا الإشارة إلى أن الكثيرين ممن استطاعوا تجاوز هذا الحاجز قد فقدوا –الأصح أنهم كان فاقدين– هم حمل الرسالة الإسلامية ، ولذلك كان ضررهم على الإسلام كبيرا، مع عدم انتفاعه منهم بشيء .

(30) يجب التنبيه على أن فساد العقيدة المسيحية يعود في جانب كبير منه إلى عدم قدرة آباء الكنيسة الأوائل على التمييز بين [الأصول]

و [الفهم] فجعلوا هذا عقيدة . و قد حدث ما يشبه هذا في تاريخ الإسلام – أثناء سيطرة الطرقيين على الفكر الإسلامي مثلا –ولولا [التمايز] [الواضح] لمصادر العقيدة الإسلامية عن [خيالات] المتخيلين، بحيث بقيت رغم سعيهم قادرة على [الوحي] لأطبق على عالم الإسلام ما أطبق على غيره من عوالم المتدينين ويعود هذا [الإنقاذ الإلهي] إلى أن الإسلام هو [المرجع] الوحيد [للتدين] إلى أن يرث الله أرضه ، و لهذا سلمت مصادره . وهذا في الحقيقة يشكل بالنسبة لنا وجها من وجوه إعجاز الإسلام .

(31) سمى الأستاذ مالك بن نبي هذه النتيجة الأخيرة التي خلصنا إليها [الأفكار الميتة] وقد اعتبرها في غاية الخطورة على الفكر الإسلامي . انظر لبيان ذلك فصل / إشكاليات البنى الفكرية في العالم الإسلامي الحديث الذي ضمته رسالة الماجستير التي تقدم بها صاحب هذا البحث الذي بين يديك لكلية الآداب ، بجامعة عين شمس ، سنة 1989، بعنوان الحضارة الإسلامية في فكر بن نبي .

(32) هناك أمثلة لا تحصى على هذا الأمر ، ولعل من أوضحها في الفكر اللإسلامي الحديث : إنكار شرعية الحجاب.حيث نرى أن القائلين بها قد خلطوا بين [حرية المرأة] وهي قضية فكرية ،و بين [أصول فقه المرأة] في الإسلام وهي قضية عقيدية ، وكانت النتيجة عدم فهم [فقه] الحجاب . ومن الأمثلة – المدهشة – إنكار وجود الملائكة بحجة عدم [الموافقة] اللعلوم الحديثة ، والمدهش فيها أن تصدر عن رجل كان له – مع غيره – فضل التصدي للفكر الغربي، وهو :سيد أميرعلي.انظر/روح الإسلام –ترجمة عمر الديراوي –ص 78.

(33) الحقيقة التي يعتقدها الباحث أن الأصول الإسلامية قد احتوت على إجابات لأمور لا يجمعها العد ، و لكن الإنسان دائما يحاول – لعجز فيه – أنسنة ما يعتقده ، و تجسيده ومن هنا جاءت الحاجة إلى [شرح] الأصول . وهذه المحاولة هي بعض ما يسمى فكرا .

(34) انظر / صحيح البخاري – كتاب التوحيد – باب ما يجوز من تفسير التوراة بالعربية.

(35) - le Dogme Et la Loi de l'Islam -I . Goldziher - p3 .

(36) المرجع السابق – ص 14

(37)- l' Eglise et l' Iislam - Gaston Zananiri - p14 .

(38) التوراة والقرآن والعلم – موريس بوكاي – ص 119 .

المراجع العربية :

1- صحيح البخاري – محمد بن إسماعيل البخاري – عالم الكتب – بيروت – د . ت .

2- السيرة النبوية – ابن كثير الدمشقي –دار الكتب العلمية – بيروت –د. ت.

3- مقارنة الأديان – د. أحمد سعد الدين البساطي – معهد الدراسات الإسلامية – القاهرة – د . ت .

4- مقارنة الأديان - محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - د . ت .
5- محاضرات في النصرانية - محمد أبو زهرة - تقديم د . عمار طالبي - شركة الشهاب - الجزائر د.ت .
6-المسيحية نشأتها وتطورها - شارل جان بيير - ترجمة وتعليق عبد الحليم محمود - دار المعارف القاهرة - د. ت .
7- الفصل في الملل والأهواء والنحل - ابن حزم الزاهري -دار المعرفة - بيروت - د. ت .
8- المغني في أبواب التوحيد والعدل - القاضي عبد الجبار بن أحمد - تحقيق محمد الخضيري - الدار المصرية للتأليف - القاهرة - 1965 .
9- أعلام النبوة - الماوردي -دار الكتب العلمية - بيروت - ط 1 - 1986 .
10- الظاهرة القرآنية - مالك بن نبي-ترجمة عبد الصبور شاهين -دار الفكر -دمشق -ط 1985 .
11-قصة الحضارة - ول ديورانت - ترجمة محمد بدران - دار الجيل - بيروت - د . ت .
12- اليهودية -د . أحمد شلبي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط 8 - 1988.
13- تاريخ الأديان - د.محمد الزحيلي -د.يوسف العش - مطبعة جامعة دمشق - 1406 هـ
14- الحضارة الإسلامية في فكر مالك بن نبي - رسالة ماجستير قدمت من الباحث / لخضر شايب لكلية الآداب بجامعة عين شمس سنة 1989 .
15- التوراة والإنجيل والعلم - موريس بوكاي -ترجمة نخبة من الدعاة - دار الكندي - بيروت - ط2 - 1978 .
16-لسان العرب المحيط-ابن منظور -إعادة ترتيب-يوسف خياط-دار الجيل-بيروت-1408 هـ.
17- روح الإسلام - سيد أمير علي - ترجمة عمر الديراوي - دار العلم للملايين - بيروت -ط 7 - 1981 .
18 - المستشرقون - تجيب العقيقي - دار المعارف - القاهرة - ط 4 - د .ت .
19 - التاريخ وكيف يفسرونه - آلبان ويدغري - ترجمة عبد العزيز جاويش -
20- العقيدة والشريعة -إنياس جولد زيهر -ترجمة محمد يوسف موبى - دار الرائد العربي - بيروت- 1946 .
21- دائرة المعارف الاسلامية - دار المعرفة - بيروت.

المراجع الأجنبية :

1 - Introduction au Coran - Regis Blachere - Maison Neuve et Larose - Paris - 2eme Edition - 1977 .
2 - Gloire a Dieu - A .Kessab -edition Salama et Sarri - Alger - 1990 .
3 - le Dogme et la Loi de l'Islam - i . Goldziher - Librairie Orientaliste Paris - 1975 .

4 - l' Eglise et l' Islam - Gaston Zananiri - S. P . E . S - Paris - 1969 .
5 - l'Atheisme - Henri Arvon - p.u.D.F- 2 EME EDIT - PARIS -1970.

